نحو نظرية جديدة
دولة بني مهدي إمامة رابعة في اليمن

أحمد بن عمر الزبلعي
قسم الآثار - كلية السياحة والآثار
جامعة الملك سعود

يرتكز هذا البحث على دراسة درهم فضي ضرب في مدينة زبيد بتهامة اليمن في عهد دولة بني مهدي[1]، ويحمل مضامين لعلها تساعد على تصحيح كثير من المفاهيم التي رسخت في أذهان بعض المؤرخين والدارسين المحدثين، ويطرح أفكارًا وفرضيات جديدة نأمل أن تلقى قبولاً لدى الباحثين والمهتمين بتاريخ جزيرة العرب عامة، واليمن خاصة. وقبل الدخول في طرح ما نحن بصدده من تصحيح تلك المفاهيم، وكذلك طرح ما نحسب أنه فرضية أو نظرية جديدة فيما يتعلق بمعتقد بني مهدي، ونظام حكمهم، يحسن بنا التّنويه لقراء العربية إلى أن معظم المضامين التي سترد هنا كانت موضوعًا لبحث سابق بعنوان: "**أضواء جديدة على دولة بني مهدي من خلال درهم فضة ضرب زبيد عام ٥٥٦هـ في زمن عبدالنبي بن مهدي**"، هذا البحث شاركت به في المؤتمر الدولي الخامس للحضارة اليمنية المنعقد في مدينة صنعاء في الفترة ما بين ١٤- ١٦ رجب ١٤٢٥هـ/ ٣٠ أغسطس - ١سبتمبر ٢٠٠٤م[2]. وعلى الرغم من جِدّة الطرح وجِدِّيَّته فإنني لم ألحظ أي رد فعل من قبل الباحثين تجاه الأفكار التي طرحتها لا بالقبول ولا بالرفض، فتبادر إلى ذهني أنني أضعت الفكرة الأساسية لهذا الطرح تحت هذا العنوان الفضفاض الذي تخيّرته له، والذي لا يوحي للوهلة الأولى بالأفكار والفرضيات الجديدة المطروحة للنقاش. لذلك أحببت في هذه الندوة العريقة المتخصصة، وأمام هذه النخبة من العلماء الأفذاذ أن أسمي الأشياء بأسمائها، وأن أعيد بتصرف قليل ومباشر ما أحسب أنه نظرية جديدة، مؤملاً أن تكون لها أصداؤها، وأن تأخذ حقها من النقاش الموضوعي بما يخدم حركة البحث العلمي ويساعد على تقدمها في مجال التاريخ والآثار، وأن يضيف جديدًا إلى المعرفة الإنسانية بتاريخ جزيرة العرب وحضارتها العربية الإسلامية. على أنه قبل هذا كله يتعيّن علينا إيراد لمحة مختصرة عن قيام دولة بني مهدي في اليمن، وفترة حكمها، والأشخاص الذين تداولوا السلطة خلالها، ثم سقوطها على يد توران شاه، أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، وذلك على النحو الآتي:

قامت دول بني مهدي باليمن على أنقاض دولة بني نجاح[٣]، وهي دولة قصيرة الأجل، إذ لم تعمّر أكثر من خمسة عشرة عامًا (٥٥٤- ٥٦٩هـ/ ١١٥٩- ١١٧٤م)، وتنسب إلى والد مؤسسها أبي الحسن علي بن مهدي بن محمد الحميري الرعيني، أصله من قرية العَنْبَرة، بناحية الساحل إلى الغرب من مدينة زبيد[٤]، وكان هذا الوالد صالحًا، سليم الصدر، يؤثر العزلة، فنشأ ولده علي بن مهدي علي سنن والده من حيث العبادة، وإيثار العزلة والصلاح، حج إلى مكة، وزار المدينة، وفيها التقى بعضًا من علماء العراق ووعّاظها، فانتهل من معارفهم، وسلك طريقهم في الوعظ، فلما عاد إلى اليمن أخذ يعظ الناس[٥]، فأثّر فيهم بما يملكه من قدرات وصفات ومهارات فطرية ومكتسبة تبارى المؤرخون اليمنيون في إيرادها، ومنهم نجم الدين عمارة الحكمي[٦]، وبهاء الدين الجندي[٧]، وغيرهما. ومما ساعده على الوصول إلى الحكم أن الحرة عَلَم، أم فاتك بن منصور، آخر ملوك دولة بني نجاح، حينما وصل إليها خبر صلاحه أعفته، وأعفت أسرته من الجباية سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م[٨]، فكثرت أمواله وخيوله، وقام بأول محاولة لإسقاط دولة بني نجاح سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٣- ١١٤٤م، ولكنه فشل[٩]، ثم كرر المحاولة بعد وفاة الحرة علم سنة ٥٤٥هـ /١١٥٠م[١٠]، وتمكن من إسقاط الدولة النجاحية في رجب سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م[١١]. وبذلك دالت إلى الأبد دولة بني نجاح التي حكمت تهامة اليمن مدة تزيد على ١٤٠سنة[١٢]، لتقوم على أنقاضها دولة بني مهدي التي ينتمي هذا الدرهم، موضوع هذا البحث، إلى أحد أفراد أسرتها الحاكمة. غير أن علي بن مهدي، مؤسس حكم هذه الأسرة، ومقوض دولة بني نجاح لم يمتد به الأجل طويلاً في الحكم، إذ توفي بعد شهرين ونيِّف من الاستيلاء على زبيد، وذلك في شوال من السنة نفسها.

وبعد وفاة علي بن مهدي انتقل الملك إلى ابنه مهدي بن علي حتى وفاته في ذي القعدة عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م[١٣]، ثم خلفه في الملك أخوه عبدالنبي، ثم أخوهما الثالث عبدالله الذي ربما آل إليه الأمر بالخديعة، أو بالتغلب على أخيه عبدالنبي، وإنما لفترة عاد الملك بعدها مرة أخرى إلى عبد النبي بن علي بن مهدي[١٤] وهو الذي على يديه استقر حكم بني مهدي، وآلت إليه زعامة الأسرة حتى سقوط دولتهم على يد الملك المعظم توران شاه، أخي صلاح الدين الأيوبي سلطان مصر، في شوال عام ٥٦٩هـ/١١٧٤م[١٥]، بعد أن حكموا فترة امتدت - كما أسلفنا- نحو خمس عشرة سنة، تمكنوا خلالها من مد سيطرتهم على معظم اليمن الأسفل سهله وجبله، وأسقطوا دولة الصليحيين، ودولة بني زريع، ولم يستعص عليهم مما كان بأيدي الأخيرين سوى عدن والدّملوه، اللتين صالحوا حاكيمهما الزريعيين على مال يؤديانه إليهم[١٦].

وفي الشمال غزا عبدالنبي المخلاف السليماني في عام ٥٦١هـ/١١٦٦م، وقتل أميرها وهاس بن غانم بن يحيى، وغنم أمواله، وسبى نساءه، ثم عاد إلى اليمن بجميع ما غنمه[١٧].

ويتضح من مجمل غزوات بني مهدي أنها كانت إلى جانب الرغبة في السيطرة والتوسع، وإشاعة القتل والخوف والرهبة في قلوب أهالي البلدان التي احتلوها، فإنها كانت تستهدف جمع الغنائم، والاستيلاء على ما

بأيدي الأسر الحاكمة من أموال وكنوز ادّخروها وتوارثوها طوال حكمهم[١٨]. وقد لوحظ ذلك بوضوح في زمن عبدالنبي بن علي بن مهدي الذي يتحفنا عمارة بتقرير ضاف عنه، وعن زمنه يفسر هذه الظاهرة، ويبين بجلاء ووضوح ما آل إلى يديه من أموال سابقيه من ملوك اليمن، بالإضافة إلى استحواذه على جميع كنوزهم ومدخراتهم التي توارثوها جيلاً بعد جيل[١٩].

سكة بني مهدي:

هذه الأموال والكنوز التي جمعها بنو مهدي من مدخرات سابقيهم من ملوك اليمن، ومن أرباب الإقطاع، وزعماء الأسر الحاكمة والمتنفذة منها، بالإضافة إلى ما عرف عن مدينة زبيد من أنها كانت دار ضرب مشهورة للسكة الإسلامية منذ ما قبل بني مهدي بزمن طويل[٢٠]. كل ذلك ساعد بني مهدي على ضرب عملة خاصة بهم في مدينة زبيد لم يصلنا منها حتى الآن سوى القليل؛ ومنها هذا الدرهم الذي بين أيدينا[٢١]. ويتضح مما عرف من السكة المنسوبة إلى فترة بني مهدي أنها جميعًا من الدراهم الفضية فقط، ولم يصل إلى علمنا، أو يقع تحت أيدينا أي دنانير ذهبية، أو فلوس نحاسية منسوبة إلى هذا العهد. كما أنها جميعًا منسوبة إلى عهد عبدالنبي بن علي بن مهدي، وهو أطول عهود حكام هذه الأسرة - كما هو معروف- ولم تصلنا أي قطعة نقدية منسوبة إلى عهد والده علي، أو عهد أخويه، مهدي وعبدالله- في حدود علمي.

الدرهم موضوع الدراسة:

هذا الدرهم من الدراهم النادرة التي تحتفظ بها مؤسسة النقد العربي السعودي، وهو في حالة غير جيدة، وكتابته ليست على درجة كبيرة من الوضوح، وبه زخارف قليلة تتمثل في وجود دائرتين مفرغتين في أعلى مركز الوجه تحفان بحرف (ع)، وكذلك أربع دوائر أخرى مطموسة تقع في أسفل مركز الظهر تحت كلمة الإسلام. أما حرف العين الواقعة بين الدائرتين الأوليين فلا أعرف ما دلالتها، وما إذا كانت ترمز للحرف الأول من اسم عبدالنبي بن مهدي نفسه، أو من اسم الضرّاب، أو متولي السكة في زمانه، أو أنها اختصار لعبارة: "عليه السلام" التي يُتبعها الشيعة عادة لأسماء الأئمة من آل بيت النبي ﷺ، فإذا صحّ هذا الاحتمال فإنها مما يعزّز الرأي الذي سيأتي بيانه بخصوص معتقد بني مهدي، هذا إلى أن وجودها في أعلا الدرهم وبعيدة عن عبارة "علي ولي الله" لا يتعارض مع تبعيتها لاسم علي ﷺ؛ لأن رسم الحروف والكلمات على السكة كثيرًا قد يكون بعيدًا عن توابعه في بعض الأحيان، وهذا أمر متعارف عليه عند من لهم عناية بدراسة المسكوكات. وهو - أي الدرهم الذي بين أيدينا- ذو طراز فريد، ويختلف في كثير من الوجوه عن طرز الدراهم اليمنية المضروبة قبله، وأيضًا عن تلك التي ضربت بعده. ومكان ضربه- كما أسلفنا - مدينة زبيد في سنة ٥٦٦هـ/ ١١٦٢م- في عهد الإمام السيد عبدالنبي بن علي بن مهدي - كما سيأتي بيانه- ويقرأ على النحو الآتي[٢٢].

أ) الوجه: تقع كتاباته داخل دائرتين إحداهما بداخل الأخرى

١- المركز: دائرة بداخلها الكتابات الآتية:

O ع O

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

علي ولي الله

٢- الهامش: [بسم الله ضرب] هذا الدرهم بزبيد سنة ست وستين وخمسمائة.

ب) الظهر: تحيط بكتاباته دائرة بداخلها:

١- المركز: دائرة بداخلها الكتابات الآتية

الإمام

شمس

شريعة

الإسلام

٢- الهامش: [لا إله إلا الله] محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره

الوزن: ١.٦١ جرام

القطر: ٢١.٦مم

رقم التصنيف في المؤسسة: م٣/ح٢٤/٧.

الدراسة التحليلية:

ستركز الدراسة التحليلية لمضامين هذا الدرهم على قضيتين اثنتين:

القضية الأولى: ما يعتقده كثيرون من أن بني مهدي على مذهب الخوارج وتعارض هذا الاعتقاد مع عبارة "علي ولي الله" التي تظهر بجلاء على وجه هذا الدرهم.

القضية الثانية: ظهور لقب "الإمام شمس شريعة الإسلام" في مركز الظهر، وهذا يفتح بابًا للنقاش حول حقيقة لم تكن واضحة كثيرًا في المصادر التاريخية، ولا مطروقة في البحوث والدراسات الحديثة، تلك هي نظام دولة بني مهدي، وهل كان إمامة أم خلاف ذلك؟

فبالنسبة للقضية الأولى: فقد ذهبت بعض المصادر والدراسات الحديثة إلى أن بني مهدي كانوا على مذهب الخوارج[٢٣]. ومن المعلوم أن نشأة مذهب الخوارج، وأصل تسميتهم كان بسبب خروجهم على طاعة الخليفة علي بن أبي طالب حينما قبل التحكيم الذي عرضه عليه خصمه معاوية بن أبي سفيان[٢٤]، وكانوا من أشد الناس خصومة لعلي ﷺ، ومن أكثرهم حربًا عليه، وعداوة له، بل إنه اغتيل على يد واحد من رجالهم هو عبدالرحمن بن ملجم، كما هو معروف، فكيف نوفق بين قول تلك المصادر والدراسات الحديثة التي اعتمدت عليها دون رويّة، وبين عبارة "علي ولي الله" التي تظهر بوضوح على السطر الثالث من مركز الوجه في هذا الدرهم، وهي عبارة تؤيد أحقية علي ﷺ في خلافة النبي محمد ﷺ عند أصحاب هذا الرأي[٢٥]، وتتعارض جملة وتفصيلاً مع مبدأ الخوارج في الإمامة، وهو "لا حكم إلا الله".

وقبل الذهاب إلى ما نحن بصدده من تقرير حقيقة انتماء بني مهدي إلى فرقة الخوارج من عدمها، يحسن بنا استعراض ما جاء في المصادر اليمنية الموثوقة بهذا الشأن، وبعضها معاصر، أو قريب المعاصرة لفترة بني مهدي، ويأتي على رأس هؤلاء عمارة (ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) الذي لم يذكر كلمة "خوارج" في وصفه لمذهب بني مهدي لا من قريب ولا من بعيد، وكل ما قاله عن مذهب علي بن مهدي أنه كان علي مذهب أبي حنيفة في الفروع، ولكنه في الأصول كان يكفر بالمعاصي، ويقتل من يرتكبها، ويقتل كل من يخالف اعتقاده من أهل القبلة، ويبيح وطأ سباياهم، واسترقاق ذراريهم، وجعل دارهم دار حرب يحكم فيها حكمه في أهل دار الحرب[٢٦].

يلي عمارة في ذكر مذهب ابن مهدي، الجندي (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) الذي أتى على كثير من التفاصيل التي ذكرها عمارة دون أن يذكر أنه، أو أحد أبنائه كان خارجيًا، وإن كان قد خلُص إلى القول: "وبالجملة فكان [علي بن مهدي] ممن سعى في الأرض فسادًا ودلائل ذلك ظاهرة"[٢٧]. وهكذا يتضح من أقوال عمارة والجندي عن مذهب ابن مهدي أنه كان حنفي المذهب في الفروع، وأنه أضاف إلى عقيدته في الأصول التكفير بالمعاصي، والقتل بها دون أن يذكرا صراحة أنه كان خارجيًا بالمعنى الذي نعرفه عن طائفة الخوارج المشهورة، والذي يُعدّ التكفير بالمعاصي، والقتل بها سمة من سمات نحلتهم التي اشتهروا بها.

ولعل أول من أطلق كلمة خارجي علي ابن مهدي من غير مؤرخي اليمن هو - في حدود علمي - ابن خلدون الذي يقول: "وكان [ابن مهدي] على رأي الخوارج يتبرأ من علي وعثمان، ويكفّر بالذنوب، وله قواعد ونواميس في مذهبه يطول ذكرها"[٢٨]. أما من المؤرخين اليمنيين المتأخرين نسبيًا فقد وردت لفظة خارجي عند الخزرجي في قوله: "وكان ابن مهدي حنفي المذهب في الفروع، خارجي الأصول، يكفر بالمعاصي، ويوجب القتل بها"[٢٩].

وسار ابن الديبع الشيباني سيرة سابقه الخزرجي في القول بخارجية ابن مهدي في الأصول[٣٠]. إلا أنهما - أي الخزرجي وابن الديبع - لم يذهبا مذهب ابن خلدون من حيث كون ابن مهدي يتبرأ من عثمان وعلي (رضي الله

عنهما). وهناك من المؤرخين اليمنيين من لم يعرض بتاتًا لمذهب ابن مهدي، ومنهم ابن سُمرة الجعدي، وهو معاصر لدولة ابن مهدي (ولد عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م، وتوفي عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م)[٣١]، وعماد الدين إدريس الحمزي (ت٧١٤هـ/١٣١٤م)[٣٢]. أما الثقفي، (مؤلف سيرة الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان، وهو معاصر أيضًا لأحداث تلك الفترة) فلم ينعت ابن مهدي بمذهب الخوارج، وإنما نعته بالقرمطي، ويصف ما هو عليه بأن ظاهره "النسك والزهادة وباطنه الزندقة والباطنية"[٣٣] وهذه قضية أخرى سنأتي إليها في سياق غير هذا.

وهكذا يتضح مما أوردناه من أقوال هؤلاء المؤرخين السابقين أنهم - فيما عدا ابن خلدون- لم يذهبوا إلى أن علي بن مهدي كان على رأي الخوارج، وأنه يتبرأ من عثمان وعلي رضي الله عنهما، وإنما يستشف من أقوالهم أن ابن مهدي سلك مسلك الخوارج في الأصول من حيث تكفيره لمرتكبي المعاصي، والقتل بها، وكذلك تكفيره لمخالفيه، واستحلال دمائهم، ونسائهم، وأموالهم، وغير ذلك من الأفعال والأعمال المنافية لعقيدة الإسلام السمحاء. ومع ذلك، فمن الصعوبة بمكان الجزم بانتماء بني مهدي إلى طائفة الخوارج المعروفة، خصوصًا أن هذا الرأي لم يقل به صراحة إلا ابن خلدون، ووافقه في ذلك باحث محدث هو محمد أمين صالح حينما اختار - دون تروٍّ- لبحث له منشور عنوان: "دولة الخوارج في اليمن: بنو مهدي في زبيد"[٣٤].

أما بعد اكتشاف هذا الدرهم الذي يمثل وثيقة رسمية تتصل مباشرة بالسلطة العليا لدولة بني مهدي، ثم ما تشتمل عليه هذه الوثيقة من عبارة "علي ولي الله" التي تتعارض جملة وتفصيلاً مع مبدأ الخوارج، وتؤكد على أحقية علي ﷺ في الخلافة عند كثيرين من خصومهم فإن الحُكْم بانتماء دولة بني مهدي إلى الخوارج هو حكم متسرع، ويفتقر إلى أدنى دليل. فماذا عن تصرفات علي بن مهدي وأبنائه تجاه رعاياهم وخصومهم على حد سواء؛ وما التفسير المنطقي لتلك التصرفات؟ ولا يملك المرء تفسيرًا دقيقًا لكل ما وقع من ابن مهدي إلا ما يمكن حمله على محمل التشدد والتعسف الذي كثيرًا ما يرافق الثورات الطامحة إلى الحكم، وامتلاك الأراضي، والتوسع فيها، والاستحواذ على ما بيد الغير من مال وعتاد، وكذلك التعسف في الأحكام مع رعاياهم، ومع خصومهم، ورميهم بالكفر والخروج عن الدين. ومما يدل على أن ما ذكر كان من باب التشدد والتعسف، وليس نابعًا من عقيدة راسخة ومبدأ ثابت أن بني مهدي أنفسهم لم يستمروا على هذه الوتيرة من الشدة، وإنما أخذت أمورهم تتجه نحو المرونة والليونة مع رعاياهم. وقد أشار عمارة إلى ذلك بقوله: "وقد بلغني في هذا الوقت وهو سنة ثلاث وستين وخمسمائة أن الأمر قد هان مما كان عليه من هذه الشدة"[٣٥].

القضية الثانية: هي ظهور لقب: "الإمام شمس شريعة الإسلام" في مركز الظهر دون ذكر اسم هذا الإمام أو صفته، ودون ذكر لاسم الأمير أو السلطان الذي سُكّ هذا الدرهم في عهده، كما هي عادة الأمراء والسلاطين والوزراء في وضع أسمائهم جنبًا إلى جنب مع أسماء الأئمة أو الخلفاء الذين تُضْرَب السكة بأسمائهم. فمن هو يا ترى هذا الإمام الملقب بلقب شمس شريعة الإسلام؟ ومن هو الأمير الذي سَكّ هذا الدرهم باسم الإمام المذكور؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال يحسن بنا الإشارة إلى أن الإمامة مرادفة للخلافة، وأن لقب الإمام مرادف للقلب الخليفة[٣٦]. وباستعراض الخريطة السياسية لأئمة ذلك الزمان المتصلين باليمن نجد أنهم ثلاثة أئمة فقط: أولهم الخليفة العباسي المستنجد بالله أو المستضيء بالله في بغداد[٣٧]. والثاني الإمام العاضد بالله، خليفة مصر الفاطمي في القاهرة المعزية[٣٨]، والثالث الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان، إمام الزيدية في شمالي شرق اليمن[٣٩]. ومن المؤكد أن الإمام شمس شريعة الإسلام ليس أحد هؤلاء الأئمة الثلاثة لأسباب منها أن لكل إمام من هؤلاء الأئمة لقبه المعروف به، وأنه ليس من بينهم من تلقّب بلقب شمس شريعة الإسلام الذي يظهر لأول مرة على السكة الإسلامية - في حدود علمي- . والثاني أن أيًا من هؤلاء الأئمة الثلاثة لم يعترف بدولة بني مهدي، ولم يفوّض أيًا من حكامها الأربعة حكم ما تحت يده من البلاد. أما السبب الثالث فما منهم إلا ويضمر العداء لبني مهدي لتعارض قيام دولتهم مع مصالح وأحلاف ومناطق نفوذ كانت تسير في فلك الخلافة العباسية، ويدين زعماؤها لها بالطاعة والتبعية الاسمية[٤٠]، وتتعارض كذلك مع بقايا بني الصليحي، وبني زريع، وبني حاتم، الذين يوالون الخلافة الفاطمية الإسماعيلية في مصر، والتي لم تستطع تقديم العون لحلفائها ضد هجمات بني مهدي، لكون هذه الخلافة في مراحل الاحتضار، ولم يعد خليفتها العاضد بالله يملك القرار السياسي الذي خرج من يده إلى يد صلاح الدين الأيوبي السني الموالي للخلافة العباسية في بغداد[٤١]. أما الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان فلم يخفِ عداءه لبني مهدي منذ الوهلة الأولى لظهور أطماعهم في إسقاط دولة بني نجاح، وإقامة دولتهم على أنقاضها؛ فقد هبّ لنجدة بني نجاح على الرغم من اختلافه معهم، حينما كان ابن مهدي محاصرًا لمدينة زبيد، ولكنه لم يفلح فانسحب منها مفسحًا الطريق للأخير إلى احتلالها[٤٢]. وظل الإمام على عدائه لابن مهدي طوال حياته، وقد سبقت الإشارة إلى أن مؤلف سيرته كان قد وصف ابن مهدي بأنه قرمطي يظهر الزهادة والنسك، ويبطن الزندقة والباطنية. وما دمنا لم نجد صلة بين لقب الإمام شمس شريعة الإسلام، وبين كل من الخليفة العباسي، والخليفة الفاطمي، والإمام الزيدي الذين عاصروا فترة ضرب هذا الدرهم، وعاصروا من ضُرب في عهده من زعماء بني مهدي؟ فمن صاحب هذا اللقب إذًا؟ وما دلالاته السياسية؟

ويغلب علي الظن أن صاحب هذا اللقب هو عبدالنبي بن علي بن مهدي نفسه، وأنه هو وسابقاه في الحكم (والده علي، وأخوه مهدي) كانوا يتصرفون على أنهم أئمة أو خلفاء، وأنهم لم يعترفوا بإمامة غيرهم من أئمة زمانهم. ومن المحتمل أن اعتقاد أتباعهم فيهم كان يصب في هذا الاتجاه، وأنهم كانوا في نظرهم أئمة مطاعين حتى إن المؤرخ عمارة الحكمي، وهو معاصر لهذه الفترة، يذكر بوضوح: "بأن اعتقاد أتباع ابن مهدي فيه يفوق اعتقادهم في الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين"[٤٣].

ويعزز هذه النظرية، إلى جانب مضامين هذا الدرهم المشار إليها، عدد من الأدلة المستقاة من المصادر التاريخية يأتي على رأسها ما يقرره ابن سمرة الجعدي صراحة من أن عبدالنبي بن علي بن مهدي كان يُعرف على ألسنة العوام بالسيد والإمام[٤٤].

ويذكر ابن المجاور أن ابن مهدي ادّعى الخلافة[٤٥]. أما ابن خلدون فهو أكثر تفصيلاً من سابقيه في إمامة بني مهدي حينما يقول: "وكان يُخْطب له بالإمام المهدي أمير المؤمنين، وقامع الكفرة والملحدين"[٤٦]. أما الخزرجي وابن الديبع فاكتفيا بإطلاق لقب السيد على حكام بني مهدي[٤٧]، وإن كانا قد أوردا من الشواهد الشعرية ما يدعم نظرية تلقب بني مهدي بلقب الإمامة أو الخلافة، وكذلك ادعاء المهدية[٤٨]. ونرى أن من المناسب إيراد بعض تلك الشواهد التي منها:

سِيَرُ الأنامِ قديمُها وحديثُها ... فرحُ القلوب وروضةُ المتنزّهِ
أشهى من الماءِ الزّلالِ على الظَّما ... وألذّ من عصرِ الشبابِ الأَمْرَهِ
فاليوم يحتَجُّ الخليفةُ بعده ... بالقائِمَيْنِ الهاديَيْنِ وزهْرِهِ
شبليهِ سبطيه اِلَّذَين إليهما ... شرفُ الإمامةِ والخلافةِ ينتهي[٤٩]

ومنها قول علي بن مهدي نفسه بعد استيلائه على زبيد:

أنا السّيُد المهديُّ والفيلقُ الذي ... يمزِّقُ يوم الروعِ شملَ الفيالِقِ
له حكمُ داودٍ وصورةُ يوسفٍ ... وحكمةُ لقمانٍ وملكُ العمالِقِ[٥٠]

ومن تلك الشواهد الشعرية أيضًا البيتان التاليان اللذان يعودان إلى زمن عبد النبي بن مهدي حينما هَزَم عسكر الداعي عمران بن محمد بن سبأ، ودخل مدينة الجُوَّة وأحرقها، وفيهما يقول قائلُهما:

بَكَرَتْ تقلُّ من الكماةِ ضراغمًا ... وسَرَتْ تَهُزُّ عواسِلاً وصَوَارمَا
علويةٌ مهديةٌ قَلَّدتَها ... من آل مهديٍّ همامًا حازمًا[٥١]

ومن اللافت للنظر أن زعماء بني مهدي لم يُسَمّوا في المصادر المتاحة ملوكًا أو سلاطين، أو أمراء، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من زعماء اليمن، وغير اليمن من أقطار العالم الإسلامي، وهذه الألقاب لا تتأتى، ولا تكتسب شرعيتها إلا باعتراف من الإمام أو الخليفة الذي يسير حاملوها في ركابه، وبتفويض منه[٥٢]. وفي حال بني مهدي فإن من الصعب عليهم أن يحوزوا على هذه الألقاب من أي خليفة كان من خلفاء ذلك الزمان؛ لأنهم على خلاف وخصومه مع الجميع، كما سبق أن أوضحنا. فهل هذه الخصومة الجماعية، والصورة العدائية التي اصطبغ بها نظامهم منذ الوهلة الأولى، كانت من العوامل المؤثرة في اختيار نظام الحكم الذي يريدون؟ وهل الاتجاه التكفيري في عقيدتهم لجميع مخالفيهم حملهم على النأي بأنفسهم عن كل تبعية، كما حملهم على أن تكون لهم إمامتهم المتفردة والخالصة من كل شائبة استنادًا إلى فكرة المهدي التي لم يتردد ابن مهدي لحظة في وصف نفسه بنفسه على

أنه "السيد المهدي"؟[٥٣].

أما لقب "السيد" الذي أطلقه ابن مهدي على نفسه أيضًا، وأطلقه عليه وعلى زعماء بني مهدي من أبنائه بعض المؤرخين اليمنيين[٥٤]، فلا نعرف ما دلالته على وجه الدقة واليقين! وإن كنا نعرف أن لقب "السيد" يطلق في معناه العام على كل من ساد قومه بمال أو بجاه. أما في معناه الخاص فيطلق على ذرية الإمام علي من فاطمة الزهراء (رضي الله عنهما)[٥٥]. فإذا وضعنا في الحسبان المعنى الأول، فما من شك أن علي بن مهدي وبنيه بلغوا من السؤدد مبلغه، فلعل ما تسنّموه من مجد، وما بلغوه من عز وجاه وغلبة على من سواهم قد خوّلهم عن جدارة واستحقاق هذا اللقب الرفيع. ولا نعدم الأمثلة على مثل هذه الحالة، ولدينا قرامطة البحرين وهجر (الأحساء)، فقد تلقب زعماؤهم بلقب السادة الرؤساء على الرغم من أنهم لم يكونوا من صلب علي من فاطمة (رضي الله عنهما)[٥٦]. أما من حيث المعنى الخاص للقب "السيد" فلا نظن أن لبني مهدي صلة به لكونهم من ذوي رعين من حمير في جميع المصادر التي تحدثت عنهم، ومع ذلك، فلا نستبعد أن يكون انتسابهم لحمير قبليًّا وليس عرقيًا؛ لأن كثيرًا من القبائل الكبيرة تضم بيوتًا وأفخاذًا متعددة النسب، وليست من أصل واحد، وإنما تحكمهم الرابطة القبلية وليس الأصول المشتركة، وهذا معروف وسائد في أوساط القبائل الكبيرة في جزيرة العرب حتى عصر الناس هذا. فهل لعبارة "علي ولي الله" التي يحملها هذا الدرهم، صلة بالانتساب إلى أهل البيت؟ ويجد المرء صعوبة كبيرة في تقرير هذه الحقيقة دون البحث بعمق وتقصٍّ في نسب ابن مهدي، وهل هو حميري رعيني نسبة ونسبًا، أم بالانتماء القبلي فقط دون النسب؟ وحتى نتوصل إلى هذه الحقيقة يمكن الاكتفاء بالقول فقط إن هذه العبارة (علي ولي الله)، إلى جانب كونها دليلاً قاطعًا على نفي شبهة انتماء علي بن مهدي لطائفة الخوارج، فإن إثباتها على هذا الدرهم ربما يجيء في سياق ما هو سائد على السكة الإسلامية في اليمن، وخاصة الصليحية التي تحمل عبارة "علي ولي الله"[٥٧].

نخلص مما تقدم إلى أن دولة بني مهدي قامت على أنقاض دولة بني نجاح في زبيد، وأنها استطاعت إسقاط عروش كثيرة في اليمن سهله وجبله، والاستيلاء على ما بأيدي زعماء تلك العروش من أموال ومدّخرات. كما نخلص إلى أن حكام بني مهدي كانوا يتمذهبون بمذهب أبي حنيفة في الفروع، إلا أنهم كانوا من التشدد ضد رعاياهم وخصومهم والمخالفين لهم، وضد مرتكبي الكبائر الذين لا يتورعون عن تكفيرهم والحكم بقتلهم - بحيث عدّهم بعض المؤرخين والباحثين المحدثين من طائفة الخوارج المعروفة. ولكن هذا الرأي تنفيه عبارة "علي ولي الله" التي ترد على هذا الدرهم، موضوع الدراسة، والتي تدلل، مع حقائق أخرى حفظتها لنا المصادر التاريخية، على أن نظام الحكم لدى بني مهدي كان يمثل إمامة مستقلة تضاف إلى الإمامات الثلاث المعروفة على الساحة اليمنية - حينذاك- وهي الخلافة العباسية، والخلافة الفاطمية، والإمامة الزيديّة. وأن زعماء هذه الأسرة تلقّبوا بلقب "إمام" وبألقاب: "السيد الإمام"، و"السيد المهدي".

اللوحة رقم (١)

اللوحة رقم (٢)

الشكل رقم (١) ويخص اللوحة رقم (١)

الشكل رقم (٢) ويخص اللوحة رقم (٢)

التعليقات

(١) هذا الدرهم محفوظ بمؤسسة النقد العربي السعودي بالرياض، ضمن مجموعة كبيرة مهمة ومتنوعة من المسكوكات القديمة والإسلامية والحديثة نسبيًا. وبالمؤسسة متحف متخصص للمسكوكات ضمن مقرها الرئيسي بالرياض. وقد وضع هذا الدرهم بين يديَّ، وقرأه وفرَّغه على ورق شفاف الأخ الأستاذ نايف بن عبدالله الشرعان، خبير المسكوكات بالمؤسسة، فله الشكر والثناء على كل هذا، وعلى إجابته على كثير من استفساراتي أثناء إعداد هذا البحث.

(٢) أنظر كتاب: *صنعاء الحضارة والتاريخ* (صنعاء: جامعة صنعاء، ٢٠٠٥م)، ٢: ١٢٥- ١٤٣.

(٣) عن دولة بني نجاح وسقوطها على يد علي بن مهدي انظر، عمارة بن علي الحكمي، *تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد*، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط٢ (صنعاء: المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م)، ١٥٤- ١٨٨؛ الزويد، هدى، "دولة بني نجاح في اليمن"، رسالة ماجستير (الرياض: قسم التاريخ- جامعة الملك سعود، ١٤٠٧هـ)، ١٦٨- ١٧٠.

(٤) عمارة، *المفيد في أخبار صنعاء وزبيد*، ١٨٥؛ ابن عبدالمجيد، تاج الدين عبدالباقي اليماني، *بهجة الزمن في تاريخ اليمن*، تحقيق: مصطفى حجازي (بيروت: دار العودة، صنعاء: دار الكلمة، د.ت)، ٧٠.

(٥) الخزرجي، *العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك*، ط٢ مصورة (صنعاء: وزارة الإعلام والثقافة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ١٢٩.

(٦) عمارة، *المفيد في أخبار صنعاء وزبيد*، ١٨٥.

(٧) بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي، *السلوك في طبقات العلماء والملوك*، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط١ (صنعاء: وزارة الإعلام والثقافة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ٢: ٥١٦.

(٨) عمارة، *المفيد في أخبار صنعاء وزبيد*، ١٨٥؛ الخزرجي، علي بن الحسن، *العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر اليمن*، مخطوطة محفوظة بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء رقم٣٣٨، قسم٢، ورقة ٤١أ؛ الديبع، عبدالرحمن بن علي الشيباني، *قرة العيون بأخبار اليمن الميمون*، تحقيق: محمد بن علي الأكوع (القاهرة: المطبعة السلفية ومكتبتها ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، ١: ٣٦٠؛ صالح، محمد أمين، "دولة الخوارج في اليمن.. بنو مهدي في زبيد" *المجلة التاريخية المصرية*، العدد ٢٥ (القاهرة: الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٧٨م)، ١٢٧.

(٩) عمارة، *المفيد في أخبار صنعاء وزبيد*، ١٨٦؛ صالح، "دولة الخوارج في اليمن"، ١٢٨.

(١٠) عمارة، *المفيد في أخبار صنعاء وزبيد*، ١٦٨؛ ابن عبدالمجيد، *بهجة الزمن*، ٧٢؛ الخزرجي، *العقد الفاخر*، مخطوطة، قسم ٢، ورقة ٤٢أ.

(١١) ابن عبدالمجيد، *بهجة الزمن*، ٧٣؛ الديبع، *قرة العيون*، ١: ٣٦٤.

(١٢) حَكَمت دولة بني نجاح في تهامة اليمن في الفترة الممتدة تقريبًا من سنة ٥١٢هـ/ ١٠٢١م إلى سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م، انظر: الزويد، "دولة بني نجاح في اليمن" رسالة ماجستير، ٥٩- ١٧٠.

(١٣) الجندي، *السلوك*، ٢: ٥١٩.

(١٤) الجندي، *السلوك*، ٢: ٥١٩؛ الخزرجي، *العقد الفاخر*، مخطوطة، قسم ٢، ورقة ١٤٧ب.

(١٥) الخزرجي، *العسجد المسبوك*، ١٣٧، ١٤١.

(١٦) عمارة، *المفيد في أخبار صنعاء وزبيد*، ١٦٨؛ الخزرجي، *العقد الفاخر*، مخطوطة، قسم ٢، ورقة ١٧٤ب.

(١٧) الخزرجي، *العسجد المسبوك*، ١٣٧؛ الخزرجي، *العقد الفاخر*، ورقة ١٧٤ب.

(١٨) انظر: عمارة، *المفيد في أخبار صنعاء وزبيد*، ١٨٩؛ الخزرجي، *العسجد المسبوك*، ١٤٤- ١٤٥.

(١٩) عمارة، *المفيد في أخبار صنعاء وزبيد*، ١٨٨- ١٩٠.

(٢٠) وصلت إلى أيدينا عملات إسلامية ضرب مدينة زبيد منسوبة الىدولة بني زياد، ثم إلى دولة بني نجاح، وذلك قبل قيام دولة بني مهدي بزمن طويل، انظر قازان، وليم، *المسكوكات الإسلامية* (بيروت: بنك بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م)، ٣٥٣؛ العبودي، صالح بن عبدالله، "دنانير صليحية من مجموعة مكتبة الملك فهد الوطنية"، رسالة ماجستير (الرياض: قسم الآثار- جامعة الملك سعود، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م)، ٢١٧، ٢١٩- ٢٢٤.

(٢١) اطلعت في أثناء إعداد هذا البحث على مثال آخر منشور لسكة بني مهدي هو عبارة عن درهم فضة ضرب مدينة زبيد في سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣- ١١٦٤م في زمن عبدالنبي بن مهدي، وعنه انظر: *Coins of the Arab Word*, Auction 22, 17 March 1987, P.32, no.130 Ar كذلك يوجد منها أحد عشر قطعة في مكتبة الملك عبدالعزيز بالرياض وأعداد أخرى قليلة في جامعة

توبنغن بألمانيا وأيضًا في المتحف البريطاني في حدود علمي.

(٢٢) انظر: اللوحة رقم (١) ورقم (٢)، والشكل رقم (١)، ورقم (٢) الملحقة بهذا البحث.

(٢٣) ابن خلدون، عبدالرحمن، *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر* (القاهرة: د. ن، ١٢٨٤هـ)، ٤: ٢١٩- ٢٢٠؛ صالح، "دولة الخوارج في اليمن"، ١٢٧.

(٢٤) الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن أحمد، *الملل والنحل*، تحقيق: محمد سيد كيلاني (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، ١: ١١٤- ١١٨؛ جلي، أحمد محمد، *دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين "الخوارج والشيعة"*، ط٢ (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ٥١.

(٢٥) الشهرستاني، *الملل والنحل*، ١٤٦، جلي، *دراسة عن الفرق*، ١٥٢- ١٥٣.

(٢٦) عمارة، *المفيد في أخبار صنعاء وزبيد*، ١٩٠.

(٢٧) الجندي، *السلوك*، ٢: ٥١٩.

(٢٨) ابن خلدون، *العبر*، ٤: ٢٢٠.

(٢٩) الخزرجي، *العسجد المسبوك*، ١٤١.

(٣٠) الديبع، *قرة العيون*، ١: ٣٧٣.

(٣١) عمر بن علي بن سمرة الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، تحقيق: فؤاد سيد، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨١م/ ١٤٠١هـ)، ١٧٩، ١٨٢- ١٨٣.

(٣٢) عماد الدين إدريس بن علي الحمزي، *تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخيار في معرفة السير والأخبار*، تحقيق: عبد المحسن المدعج (الكويت: مؤسسة الشراع العربي، ١٩٩٢م)، ٨٩.

(٣٣) سليمان بن يحيى الثقفي، *سيرة الإمام أحمد بن سليمان*، تحقق عبدالغني محمود عبد العاطي، ط١ (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٢م)، ٢٣٢.

(٣٤) صالح أمين، *المجلة المصرية التاريخية*، العدد٢٥، ١٢٧.

(٣٥) عمارة، *المفيد في أخبار صنعاء وزبيد*، ١٩١.

(٣٦) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، *الأحكام السلطانية*، ط٢ (القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م)، ٥- ٢١؛ الحنبلي، أبو يعلي محمد بن الحسين الفراء، *الأحكام السلطانية*، تحقيق: محمد حامد الفقي (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ١٩- ٢٨؛ حسن، حسن إبراهيم، وعلي إبراهيم حسن، *النظم الإسلامية*، ط٤ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م)، ١٩- ٢١.

(٣٧) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، *الكامل في التاريخ*، ط٤ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ٩: ١٠٨- ١٠٩، ١٤٨.

(٣٨) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهر: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د.ت)، ٥: ٣٣٤- ٣٣٥.

(٣٩) انظر: الثقفي، *سيرة الإمام أحمد بن سليمان*، وكلها مخصصة للإمام وسيرته وحروبه حتى وفاته في سنة ٥٦٦هـ، انظر أيضًا: ابن الحسين، يحيى بن الحسين بن القاسم، *غاية الأماني في أخبار القطر اليماني*، تحقيق: سعيد عاشور ومحمد مصطفى زيادة (القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م)، القسم الأول، ٢٩٥- ٣٦٦.

(٤٠) كان بنو نجاح السنّيين يوالون الخلافة العباسية السنيّة طوال حكمهم، على حين كان بنو الصليحي ومن لفّ لفّهم يوالون الخلافة الفاطمية في مصر. وعن ولاء بني نجاح للعباسيين انظر: ابن المجاور، جمال الدين يوسف بن يعقوب، *تاريخ المستبصر*، تحقيق: أوسكر

لوفغرين (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٥١م)، ٧٢؛ الديبع، عبدالرحمن بن علي بن محمد، *بغية المستفيد*، تحقيق: عبدالله الحبشي (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٧٩م)، ٤٥؛ الزيلعي، أحمد بن عمر، *الأوضاع السياسية والعلاقات الخارجية لمنطقة جازان (المخلاف السليماني) في العصور الإسلامية الوسيطة*، ط١ (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١٣هـ /١٩٩٢م)، ٤٨.

(٤١) ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة*، ٥: ٣٨٢، وما بعدها.

(٤٢) ابن عبدالمجيد، *بهجة الزمن*، ٧٣؛ الخزرجي، العقد الفاخر (مخطوط) قسم٢، ورقة ٤٢أ.

(٤٣) عمارة، *المفيد في أخبار صنعاء وزبيد*، ١٩١.

(٤٤) الجعدي، *طبقات فقهاء اليمن*، ١٨٣.

(٤٥) ابن المجاور، *تاريخ المستبصر*، ٧٣.

(٤٦) ابن خلدون، *العبر*، ٤: ٢٢٠.

(٤٧) الخزرجي، *العسجد المسبوك*، ١٢٨؛ الديبع، *بغية المستفيد*، ٦٥؛ الديبع، *قرة العيون*، ١: ٣٥٩.

(٤٨) الخزرجي، *العقد الفاخر*، (مخطوطة)، قسم٢، ورقة ٤٢ب؛ الديبع، قرة العيون، ١: ٣٦٥.

(٤٩) ابن المجاور، *تاريخ المستبصر*، ٧٤.

(٥٠) الخزرجي، *العقد الفاخر* مخطوط، قسم٢، ورقة ٤٢أ؛ الديبع، *قرة العيون*، ١: ٣٦٥.

(٥١) بامخرمة، *تاريخ ثغر عدن*، ١: ١٢٨.

(٥٢) الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين، *زبدة كشف الممالك*، اعتنى بتصحيحه بولس راوس، (باريس: المطبعة الجمهورية، ١٨٩٤م)، ٨٩؛ أحمد، محمد عبدالعال، *أضواء جديدة على أحياء الخلافة العباسية* (القاهرة: د. ن، ١٩٨٧م)، ٣٧.

(٥٣) الخزرجي، *العقد الفاخر* (مخطوط) قسم٢، ورقة ٤٢أ؛ الديبع، *قرة العيون*، ١: ٣٦٥.

(٥٤) انظر على سبيل المثال: ابن سمرة، *طبقات فقهاء اليمن*، ١٨٣، الخزرجي، *العقد الفاخر*، (مخطوط) ورقة ٤٢ب؛ *العسجد المسبوك*، ١٢٨؛ الديبع، *قرة العيون*، ١: ٣٥٩، ٣٦٥؛ الديبع، *بغية المستفيد*، ٦٥.

(٥٥) انظر: جمل الليل، السيد يوسف بن عبدالله، *الشجرة الزكية في الأنساب وسيرة آل بيت النبوة*، ط٢ (الرياض: مكتبة التوبة، ١٤٢٢هـ)، ٥٨٩- ٥٩٧.

(٥٦) خسرو، ناصر، *سفر نامة أو رحلة ناصر خسرو*، ترجمة يحيى الخشاب، ط٢ (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠م)، ١٤٣؛ الزيلعي، أحمد بن عمر، "مسكوكات ذهبية جنابية ضرب بلاد الشام"، *بلاد الشام في العصر العباسي* (عمان: المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)، ٣٥٥- ٣٦٣؛ الجابر، إبراهيم جابر، *النقود العربية الإسلامية في متحف قطر الوطني*، سلسلة (٢) (الدوحة: وزارة الإعلام، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ٢٠٣- ٢٠٤.

(٥٧) انظر على سبيل المثال، العبودي، صالح بن عبدالله، "دنانير صليحية من مجموعة مكتبة الملك فهد الوطنية"، رسالة ماجستير، ١٩١- ١٩٧، ٢٠٢ – ٢١٦، اللوحات أرقام ١- ٥٠؛ الجابر، *النقود العربية الإسلامية في متحف قطر الوطني*، ٣٢٦- ٣٣٣.